ملامح الهوية في رواية سيدات زحل رواية سيرة ناس ومدينة
Identité représentations in Lotfiya's Novel the Women of Saturne, A Biography of a people and a city.

نهاد خلوف[1]

1جامعة محمد خيضر بسكرة ،الجزائر/ NIHAD.KHELLOUF@UNIV-BESKRA.DZ

تاريخ الاستلام:2021/04/24 تاريخ القبول:2021/06/03 تاريخ النشر:2021/12/26

ملخص: تميزت رواية سيدات زحل للطفية الدليمي بكونها قادرة على رصد التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وارتكازها على الخطاب الهوياتي كموضوع أساسي، من خلال تطرقها للذات المشطورة، ومسألة الانتماء، والتعدد الطائفي والعرقي الذي تتأجج مع الاحتلال الأمريكي لبغداد، كما رصدت الأصوات والرؤى والإيديولوجيات، فجاءت كأداة تعرية وفضح، فصورت لحظة سقوط الذات في فخ الآخر، وتناولت التناحرات الدموية الناتجة عن الفرقة، دون أن تستثني العنف الطائفي وما نتج عنه من هجرة وشتات

الكلمات المفتاحية:

الهوية . العنف الطائفي . الأقلية . العرقية . الثقافة

Abstract: The Novel « the Women of Saturne», a Biography of people and a city by the Iraqi writer Lotfiya AL-Dulaimi is characterised by its ability to monitor social, economic and political transformations ,and by its focus on identity discourse of one of most fundamental issues

This manifests through her view of the split self, the issue of belonging, and the sectarian and ethnic diversity that flared up with the American occupation of Baghdad in 2003. It also monitors the voices, visions and perception, in that it became a tool of exposure and disclosure, as well as it depicts the moments of the self-falling into the trap of the other,as it deals with the bloody rivalries resulting from despersion of relations, and the sectarian violence leading to division and diaspora-

Keywords: IDENTITY SECTARIAN , VIOLENCE. CULTURE., MINORITY ETHNIC

المؤلف المرسل: نهاد خلوف[1]

NIHAD.KHELLOUF@UNIV-BESKRA.DZ

"ملامح الهوية في رواية سيدات زحل رواية سيرة ناس ومدينة"

مقدمة:

لكل مجتمع هويته تميزه عن المجتمعات الأخرى ، حيث تجمع بين أفراده « مجموعة من الروابط المشتركة ثقافية، لغوية، تاريخية وجغرافية تتمثل في الأرض المشتركة، وهذه الروابط تختلق صيرورة تاريخية بحكم الاستمرارية، وتكون ملامح شخصية قومية (أو وطنية) واحدة، مما جعل عنصر الانتماء قائما في الضمير الجمعي لأفرادها.» (البوني، دون سنة، ص 15)

أما الأقلية فهي « جماعة أقل عدد عن بقية السكان، وتعيش هذه الجماعة في وضع لا يمكن السيطرة اجتماعيا أو سياسيا أو قانونيا مع الجماعة المهيمنة عليها، ولذلك تظهر الأقلية تضامنا فيما بين أفرادها لشعورهم بالاختلاف» (سعد، دون سنة، ص ص 21-25)

ولو عدنا وأسقطنا هذا الأمر على العراق لألفيناه يمثل نموذجا حيا « للمجتمعات القديمة والدول الجديدة، إذ تتوفر بلاد ما بين النهرين أو الهلال الخصيب على ماض تاريخي غني على نحو غير عادي.» (ايربك، دون سنة، ص ص 39-40)

وعليه كانت الأمة العراقية تتشكل من سلسلة من الجماعات العرقية والدينية، المذهبية واللغوية، فهناك مجموعات عرقية مثل العرب الذين يمثلون الأغلبية، والأكراد والتركمان، والأرمن والكلدان والأشوريون والسريان وآخرين، ومجموعة دينية من المسلمين والمسيحيين والصابئة المندائيين، واليزيديين والبهائين، واليهود، على غرار وجود طوائف دينية ومجموعات مذهبية كالمسلمين والسنة والشيعة والمسيحيين.

ولعل هذا الغنى والتنوع هو ما جعل من العراق يمتلك خصوصية ثقافية وحضارية جميلة، سعى إلى المحافظة عليها لآلاف السنين، لكن مع الاحتلال الأمريكي للعراق صار هذا التنوع مهددا بفعل الهجرة، أو الذوبان في ثقافة الغالبية، مما جعل الوطن مهدد بأن يفقد جزءا من ذاكرته لا يمكن تعويضه، لأن خطر الانقراض الذي تتعرض له الأقليات وهجرة اللاعودة هو تهديد للهوية العراقية، وخطر محدق، وتجريد للهوية من مكوناتها وإفقارها للتنوع وتصحرها.

ولهذا جاءت التمثيلات السردية التي كتبت خلال مرحلة الأزمة وما بعدها مشحونة بكثير من الحمولات الثقافية والتاريخية والحضارية بما في ذلك الرواية، حيث أنها لم تكن بمعزل عن الأحداث السارية في العراق، ومن ثمة جاءت أغلب الروايات العراقية تطرح موضوع الهوية، أو تتطرق لأحد موضوعاتها كالهوية الفرعية والأقليات العرقية والصراعات الطائفية والثقافية، الأمر الذي جعل إمكانية الحديث عن هوية واحدة وموحدة غائبا أو بالأحرى مغيبا، وهو ما ساعد خطاب الهوية على البروز ليتغذى هذه المرة من الأحداث التاريخية الكبرى التي عاشتها العراق، لأن هذه الأحداث إلا « وتترك بصمات واضحة وظاهرة على كافة الأشكال الأدبية والفنون عامة، إن الحروب والثورات الاجتماعية والصناعية غالبا ما تهز الضمير الإنساني وتغير كثيرا من القيم والأفكار السائدة.» (الماضي، ، ص 1972، ص 21)

وبناء على ذلك كانت أغلب الروايات العراقية في زمن الحرب وما بعده، تتطرق للكوارث والحروب والاحتلال الأجنبي، تطرح كل التفاصيل بتكثيف دلالي عميق، يجسد جميع الأصوات المخنوقة، والآراء المتشابكة والعلاقات الشائكة، خاصة وأن الرواية هي « بناء من القيم يشيد بواسطة اللغة»(الماضي ش.، 2005) هي ببساطة « تحاول أن ترسم السماء الفكرية لأشخاصها» (لوكاتش، 2014، ص 105)

ومن بين هذه الروايات نجد رواية "سيدات زحل رواية سيرة ناس ومدينة"، هذه الأخيرة التي سعت إلى رسم معالم المتخيل السردي الروائي من خلال ارتكازها على مدى فهمها واستيعابها لقضايا العصر الذي تعيش فيه، والعالم الذي تنتمي إليه، رغبة منها في نقل مشاهد الحياة اليومية وصهرها وتحويلها إلى مادة حكائية تبني عليها مخيالها الروائي.

فالسرد يصبح تاريخا والتاريخ يصبح سردا حسب "بول ريكور".

ولهذا سنحاول من خلال دراستنا أن نرصد ملامح الهوية العراقية، والكشف عن الحقائق المخبأة و راء الأقنعة المصطنعة والبراقع.

ثانيا: ملامح الهوية في الرواية:

1. الذات المشطورة بين صدع الاسم واستحالة الانتماء:

لم تغب أبجديات الانتماء عن وعي الكاتبة العراقية "لطفية الدليمي" وهي تكتب روايتها سيدات زحل، بحيث جعلت من اسم "حياة" وهو الشخصية المحورية في الرواية معبرا للدخول إلى عوالم هذه الشخصية، والتغلغل في فضاءاتها المضطربة، بغية الوقوف على ما تستضمره هذه العوالم من إيحاءات ودلالات لا تبوح بمعانيها ومقاصدها إلا لمن امتلك مفاتيح الولوج، ليتسنى له بعد ذلك فك شفراتها ومعانيها.

فمند السطور الأولى من الرواية يعتري وعي البطلة حياة شعور عميق تصطحبه جملة من الاضطرابات والمفارقات بلغت بها مبلغها من حد الإرباك والشك، الضياع والتشتت، وأولى هذه المفارقات هو سؤالها عن اسمها أهي حياة البابلي أم أنها أخرى « أنا حياة البابلي أم أنني أخرى؟ ومن تكون آسيا كنعان التي أحمل جواز سفرها؟ أنت أنت أجل حبيبتي إنك هي، أنت حياة، ثقي بي أنت حياة». (الدليمي، ، 2015، ص 7)

ومن هنا كان الاسم العتبة الأولى الذي انبثق منها سؤال الهوية الموحي بالانشطار والتشظي والضياع « أنا الآن حياة رائحتي رائحتها وجلدي جلدها وصوتي أيشبه بصوتها ؟ ؟ أصرخ حياة حياة، ولكن يا امرأة هي أنت صدقت كونك حياة ألا يحتاج الأمر إلى أحد يؤكد ذلك هل يعرف الآخرون أفضل مما نعرف أنفسنا» (الرواية، ص 16)

فمعرفة الذات هنا لا تكون إلا من خلال الآخر، وأن الآخر يمثل بالنسبة لها المرآة التي تستطيع أن ترى من خلالها الذات ذاتها على حقيقتها دون تشوه أو زيف ولعل هذا الأمر هو ما جعل " لفيش تروس" يذهب إلى أن اسم العلم يتحدد بثلاث وظائف رئيسية، وتختص كل وظيفة منه بمهمة أو مهام محددة، وتتمثل هذه الوظائف، وتلك المهام في « التعريف والتصنيف والدلالة، ويمكن أن تنتج الوظيفة الأولى في إعطاء اسم وحيد من نوعه أو تتموضع في ملتقى عدة تعريفات كالتذكير مثلا بيوم الولادة أو بتفصيل مرتبط بها أو أن تختلف (...) حسب ظروف ومراحل الحياة و الوظيفة الثانية تصنف الفرد ضمن جملة

محصورة أو واسعة لكون الاسم يدل على الهوية الجماعية عبر تناغمه الجغرافي أو رنته الاجتماعية مثلا وظيفته الثالثة أي الدلالة مرتبطة بالتعقيدات الرمزية.» (لابورت، 2014، ص 173)

فالتعريف إذن رصد لخصائص الاسم وتحقيق لتمايزه عن الآخرين، في حين ترتبط الدلالة بالإيحاءات الرمزية المنبثقة عن الاسم، أما التصنيف فهو وضع الفرد من خلال اسمه طبعا ضمن إطاره الثقافي والأنثربولوجي والسوسيولوجي، ذلك أن الاسم ذاكرة جينالوجية يحملها الفرد كعلامة ممايزة أو نسق شديد الخصوصية، يحيل مباشرة على الانتماء العرقي والثقافي في الحاضن لكينونة الفرد وهويته وفي هذا الصدد تقول « أقف أمام المرايا فينبؤني ثوبي الناعم بألوانه الوردية المتماوجة أنني هي، هذا ثوبها، ثوب حياة البابلي. ينعكس لون الثوب الوردي على روحي فأشتعل.» (الرواية، مصدر سابق، ص 14)

فهي تبحث عن أي شيئ يؤكد لها هويتها الضائعة، هذا الشيء الذي جعل العلاقة التي تجمع ذات الشخصية حياة البابلي / آسيا كنعان علاقة متنافرة، يصارع فيها الدال مدلوله من خلال الهوة السحيقة التي تباعد بين القطبين أو الاسمين « اسمك من الآن سيكون آسيا كنعان اسم لا يدل على دين أو طائفة أو عشيرة.» (الرواية ص 8 و 9)

« كان اسمي حياة البابلي حين عشقني ناجي الحجالي، وهو رجل القناع نفسه الذي شاء أن يبهرني بألاعيب العشاق» (الرواية ص 17)

وعليه فان الاسمين المشكلين لشخصيتها أفقداها هويتها الكاملة، لأن كل اسم يحمل خصوصية وثقافة منبته، أما أن تحمل اسمين أو أسماء عدة يعني ذلك أنك حامل لعديد من الهويات، والانتماءات المخبوءة داخلك، والتي تثقل كاهلك وتقعدك عاجز عن تحديد هويتك، فمن جهة أخرى هناك اسم حياة البابلي بحمولاته الدلالية والحضارية والثقافية، والذي يحيل مباشرة إلى بابل، إلى مدينة العراق، وفي الجهة الأخرى اسم "آسيا كنعان" المستعار الهلامي الذي يحجب الذات عن نفسها.

وبالتالي فليس غريبا أن تعلن حياة بعد هذا أو ذاك عن ضياعها وتشتتها، وتطرح سؤال الكينونة من أكون؟ ومن أنا؟ ; لأن الاسم هو « دائما رهان من رهانات الهوية و الذاكرة فالذاكرة و الهوية يقيمان فيما بينها علاقة قوية جدا في كل حالات التسمية، كما أن تغيير الاسم يكون من جهة أخرى محنة وتبعية بالنسبة للفرد الذي ترى هويته مهددة وموضع شك في آن واحد.» (كاندو ، 2009، ص 84)

وبناء على ما سبق كان تغيير الاسم يتعدى مجرد كونه تغيير للأسماء وللألقاب والاستعارات، إنه يمثل في حقيقة الأمر صراعا ثقافيا وسياسيا، هو قلق وجودي، ومأزق له تماس بمسألة الانتماء التاريخي والوطني والثقافي; لأن الشرخ الحاصل بين الأسماء وما تحمله من دلالات وإيحاءات، ما هو إلا وجه من أوجه الهجنة، والتمزق الحاد على مستوى الهوية، الذات، الكينونة، وصدع الاسم يؤدي إلى صدع الانتماء، بل يسبب تشظيا وانشطارا عميقين يمسان الهوية، فكيف بنا إذا علمنا أن الاسم لم يكن المحنة أو الأزمة التي اكتنفت شخصية حياة البابلي / آسيا كنعان فحسب.

2. الذات الروائية بين وطن ترفضه / ووطن يلفظها:

لم يكن صدع الاسم وهجنه الذات المفارقة الوحيدة في الرواية التي شكلت هوية حياة البابلي/ آسيا كنعان، إذ تكشف لنا الدليمي عبر مجريات عملها سيدات زحل عن مفارقة أخرى من مفارقات شخصيات روايتها المحورية هذه الأخيرة التي لم تكن أقل إرباكا وإزعاجا عن سابقيها، ذلك أن حياتها كانت سلسلة ارتحالات اضطرارية من مكان إلى آخر، بل أن عامل اللااستقرار والهجرة، والبعد عن الوطن قد لاح في الأفق قبل أن ترى النور لتتوالى بعد ميلادها سلسلة من التنقلات القسرية التي وشمت وجودها في حلقة مفرغة، ما بين العراق والملجأ وأماكن أخرى، لتكون خارج المكان / على حافة الثقافات بالتوصيف الادواردي، خاصة وان المكان يلعب دورا هاما في تحديد الهوية، ويعتبر عنصرا منتجا لها، فالمكان عنصر وجود يحمل الفرد ثقافته وخصوصيته التي تشكل هويته المرتبطة بذلك المكان ولهذا أشار إلى ذلك جيرار جنيت إلى كونه « فضاء جغرافي يتولد عن القصة في الحكي، مثلما يشير إلى فضاء آخر دلالي يتكون من لغة الحكي من خلال الصور المجازية.» (المرجع نفسه ص 86)

ولهذا كان المكان له دلالته "الرمزية حيث تشير لطفية" إلى العراق / البلد / الهوية، بعد أن حطمته الحروب والتهمته الفتن فصار نسيا منسيا « أحاول تجميع الشظايا لأعيد تشكيل صورة مدينة محطمة وأنا معا (...) ليست بمحض مصادفة (...)، بل حتمية كونية لا تفسير لها فلأنتقل بين الأزمنة، وأحوال مدينتي في عصورها وحكايات البنات واضع صورة من كل هذا الحطام كفسيفساء تشتهينا.» (الحميداني، دون سنة، ص 60)

« أهذه المدينة المحطمة مدينتنا؟؟ أهذه بغداد أم أنني ضللت السبيل إليها؟.» (الرواية، مصدر سابق، ص 18)

« بغداد تخلت عنا بقدر ما تخلينا عنها.» (الرواية، ص 31)

« الأمكنة تزول في بغداد بطريقة غامضة كما يحدث لأهلها كأنها تغوص.» (الرواية ص 32)

حياة سيطر عليها شعور اللاانتماء إلى أي مكان من الأمكنة التي عبرت منها، فهي موجودة فيها وغير موجودة، هي منقسمة بين ماض خلفها، وحاضر غامض بالنسبة إليها، لهذا راحت تقارن بين بغداد الماضي وبغداد الحاضر، الأمر الذي ضاعف إحساسها بفقدان هويتها; لأن « حاجة المرء إلى الجذور تكون أهم حاجات النفس البشرية وأقلها تبينا واعترافا» (الرواية ص 72)

فليس من السهل على المرء أن يفقد معالم وطنه، فما بالك إذا عشش وطنان في شخص واحد، وبتفاصيل و حيثيات كتلك التي تمر بها حياة، مما ولد لديها غربة مزدوجة يتقاذفها شعور بالتعدد و البينونة والتو ثر والقلق فهل قدر لها أن تقضي عمرها وهي في رحلة بحث عن وطن واسم ودين تضيع بدل أن تلتمس الطريق لتعرف ذاتها؟

ثالثا: الاختلاف الديني والطائفي ومحنة الهوية العراقية في الرواية:

1 . الاختلاف الديني:

يمثل الدين المعتقد الإيماني حيث « تقوم فكرة الدين على الإيمان بمبادئ وطقوس مشتركة تجعل الهوية الدينية تتجاوز المجتمع الضيق القبلي أو القومي، وتتجاوز الأخوة بالدم لتصبح أخوة بالعقيدة والإنسانية، لتشمل المجتمعات الإنسانية الأخرى.» (سعيد، دون سنة، ص 28)

فرغم الاختلاف الثقافي الموجود بين البشر إلا أنهم جميعا يؤدون طقوس دينية كل حسب معتقداته، إذ يلعب الدين دورا محوريا في تشكيل الهوية الثقافية لأي أمة من الأمم والقومية « لكنه لا يشكلها بمفرده وإلا أصبحت الهويات وفقا للمنظور الديني محددة حسب الديانات السماوية الثلاث المعروفة ولأصبح الجميع يحملون هوية واحدة رغم تمايزهم واختلافهم في اللغات والثقافات و الحضارات» (غليون، دون سنة، ص 146-147)

ولكن هذا الأمر كان مختلفا في العراق الذي وجد نفسه أمام هويات دينية متقاتلة ومؤدلجة سياسيا فهذا هو « حال الدولة العراقية التي باتت بعد عام 2003 عاجزة عن فرض سيادتها أو استخدام القوة لمواجهة الميليشيات والجماعات الطائفية والإرهابية التي تقود أزمة العنف في العراق والقضاء عليها.» (البوني، دون سنة، ص 29)

ولو حاولنا عرض الهويات الدينية التي تطرقت إليها الدليمي في هذه الرواية لحصرناها فيما يلي:

1 . 1 الهوية الإسلامية: (سنة وشيعة):

تمثلت الهوية الإسلامية في مذهب الشيعي من خلال بعض الأحداث والطقوس أو العبارات، فمثلا نرى الهوية الشيعية من خلال طقوس الزيارة والتبرك حول ضريح الإمام موسى الكاظم; إذ تقول الدليمي: « رجل بأثواب طويلة وعباءات نجفية رقيقة محلاة بتطاريز من أسلاك الذهب تتدلى على أكتافهم تحت الكوفيات يحيطون بشاب يضع عباءة بيضاء، يطوفون به حول الضريح، عروس جاؤوا يباركون جهاز عرسها في مرقد الكاظميين، نساء مسنات يدعكن أساور ذهب العروس على شباك الضريح الفضي متبركات وأخريات يحملن

رباطات ثياب العروس فوق الرؤوس ويدرن حول ضريح الإمام موسى الكاظم.» (شيحة، 2016، ص 17)

كما ورد ذكر لفظة مسلمون في مواضع أخرى إذ تقول لطفية: « تركت لسميرة حرية العبادة صحيح أنها رسميا مسلمة، لكن هذا لن يغير من الأمر شيئا، كلنا نعبد الرب الواحد فالدين صلة روحية بالله وليست طقوسا وتسميات وهل ستدعها تأتي إلى الكنيسة هذا يتوقف عليها لتفعل ما تريد.» (الرواية ص 12)

وفي هذا المقطع نجد حديث عن حرية المعتقد، فالصلاة مثلا صلة بين العبد وربه هدفها التضرع له مهما اختلفت الطقوس والتسميات.

وفي موضع آخر تقول « لو كان الأمر في السبعينات لاختلف الأمر الآن مع الطوائف والقتل والحرق والكنائس لا لا يمكن، هيلين جلبت لنا العار بزواجها بمسلم، لا بقاء لنا هنا في بغداد.» (الرواية ص 13)

وهنا تعقد الدليمي مقارنة صريحة بين بغداد قبل زمن الحرب وبغداد في زمن الحرب وما بعده، بعد أن فرقته الحروب والصراعات الطائفية والعرقية وسنت له قواعد وبنود جديدة، محطمة كيان هذا البلد الذي كان لحمة واحدة ثم صار فرقة وشتات.

1 . 2 الهوية المسيحية:

ذكرت الهوية المسيحية في عدة مواضع « روى لي أبي القصة وضاعف هذا خوني علي هيلين وأهلها في الفترة الأخيرة متشددون يفجرون الكنائس والأديرة ويغتالون المسيحيين في الموصل وبغداد قبل يومين خطفوا لينا الشابة.» (الرواية ص 286)

« كانت عشرون عائلة مسيحية تسكن سوريا وتعمل في زراعة الحنطة والشعير وتربية المواشي.» (الرواية ص 288)

وعليه فالروائية قد عرضت الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في الموصل وبغداد من طرف باقي الطوائف المتطرفة، كما أشارت إلى بعض المهن التي كان يمتهنها.

والمعلوم أن المسيحيون في القرون الأولى لنشأتها قد دخلت« في نزاعات مذهبية مريرة تركت آثارها جلية فيما كتب الآباء المسيحيون ومن اليهودية الرسمية، وتلتها نزاعات فكرية بين الدعاة الذين اتجهوا للتبشير بالمسيحية بين أولئك الذين اعتنقوا المسيحية مع اليهود الذين أصبحوا يعرفون باسم المسيحيين اليهود في ذات الوقت.» (الرواية ص 284)

كما أن « دعاة المسيحية وأنصارها واجهوا اضطهادا طول القرون الثلاثة الأولى، إلا أن نفوذ الكنيسة المسيحية كان قد امتد بعيدا من بلاد ما بين النهرين حتى غرب أوروبا وشمال أفريقيا.» (شيحة، 2016، ص 17)

ولعل هذا الصراع قد تأجج مرة أخرى مع تفاقم الأزمة في العراق، وظهور العنف الطائفي.

1 . 3 الصابئة المندائيين:

نلمح الهوية الصابئة المندائية في رواية سيدات زحل، حيث يقول أحد أشخاصها « أمضينا أربع سنوات مع شروق مع أسرة صاعه مندائين.» (المرجع نفسه ص نفسها)

والصابئة لمن لا يعرفهم جماعة عرقية ودينية هاجرت من فلسطين، وسكنت جنوب العراق على ضفاف نهري دجلة والفرات وغيرها من الدول، ويعد الصابئة المندائيون من أقدم الجماعات التي سكنت بلاد ما بين النهرين كما أن ديانتهم من أقدم الديانات في العالم « وقد دون الصابئة المندائيون معتقداتهم الدينية في صورة كتب ولفائف مخطوطة، كما دونوا بعضها منقوشة على صفائح الرصاص ورقائق الجلد وظلوا ينسخونها جيلا بعد جيل واعتبر نسخها وصيانته دليلا على تقوى من يقوم بذلك، وعملا مجيدا يزيد من حسناته يوم الحساب.» (الرواية ص 285)

1 . 4 الهوية اليزيدية:

نهاد خلوف

اليزيدية جماعة عرقية ودينية موجودة في شمال العراق تعتنق الديانة اليزيدية التي تحمل ارث ديانات الشرق القديمة في بلاد الرافدين، وتحتل عناصر الطبيعة (الماء، الهواء، التراب، النار) مكانة مميزة في ديانتهم ويقصدون الشيخ آدى عدي بن مسافر الأموي باعتباره مجدد ديانتهم.

اضطهد اليزيديون أيام الدولة العثمانية فقد حاولت الحكومة آنذاك إجبارهم على اعتناق الإسلام، لينظموا إلى الخدمة العسكرية، ثم تعرضوا لمذابح وإبادة الأمير سوران الكردي، وقد تعرضت الروائية للأزيدية في قولها: « بعد أن ضربت بغداد موجة جديدة من الطاعون، قرر أبي أن يأخذنا إلى الموصل أنا وصديقاتي لأمضي شهورا في بيت أمير اليزيدية وبناته»(سباهي، دون سنة، ص 20)

حيث أسعفت فتنة الكردية، والتي اعتقدت أنها يزيدية بعد أن أحرق الجيش سبع قرى معلقة على السفوح في إشارة من لطفية الدليمي إلى أن الجيش كان مستهدفا للأكراد في تلك المناطق وليس اليزيديون كما ورد أيضا ذكر اليزيديين في قولها : « أعادنا جدنا داوود باشا إلى بغداد محروسين في قافلة مهيبة وأرسل قوات من الانكشارية لحماية من تبقى من اليزيديين الذين أكرمونا.» (الرواية ص 209)

وهي إشارة من الدليمي إلى أن اليزيديين هم أيضا لم يسلموا من الحرب الطائفية الدموية وتعرضوا للاضطهاد من قبل بقية الطوائف.

وفي قولها: «هي ليست يزيدية اليزيديون يحرمون اللون الأزرق لون الطاووس المقدس.» (الرواية ص 211)

نجد إشارة صريحة للطفية إلى عادة من عادات اليزيديين وهي تقديس طائر الطاووس.

رابعا: العرقية ومأساة الهوية في الرواية:

إن التنوع في العراق كما أشرنا سابقا لم يقتصر على الذين فقط وإنما تعداه ليشمل تنوعا وغنى على المستوى العرقي ولو عدنا إلى الرواية وحاولنا تقصي هذه الظاهرة لوجدنا أن لطفية الدليمي قد ذكرت العديد من الأعراق يمكننا حصرها فيما يلي:

1 . الهوية التركمانية:

التركمان أحد الأقليات العرقية التي تسكن العراق أكثر من ألف عام، وأصبحوا جزء لا يتجزأ من أهله وتاريخه، واختلطت دماؤهم بالدماء العربية والعراقية وقد ورد ذكر هذا العرق في سيدات زحل في حديثها عن جدتها « ورثت زينة الجمال الأشقر من عائلتها التركمانية، جدها رشيد سليم أوغلو من كركوك تزوج حسناء من بلاد القفقاس.» (الرواية ص 240)

كما نلمحه في قولها:« لا تخشى شيئا هي لا تعرف سوى اللغة التركمانية لا لن تبوح بسرنا لأحد.» (الرواية ص 139)

ولعل هذا الأمر يوحي بالتعدد اللغوي أيضا في العراق ويشير إلى أن للتركمان لغة خاصة بهم يتواصلون بها فيما بينهم.

2 . الهوية الكردية:

كان التركيز في الرواية على الهوية الكردية من خلال الحروب التي خاضوها، وثوراتهم ونضالهم في سبيل القضية الكردية ; حيث تطرقت " لطفية الدليمي" إلى حالات الاضطهاد الجماعي الذي كان يحياه العراقيون « ومئات القرى الكردية تحولت إلى رماد وهرب بعض أهلها ومات الذين عجزوا على الفرار.» (الرواية ص 136).

3 . الهوية الغجرية:

تظهر الهوية الغجرية في الرواية بصورة عرضية; تذكر "الدليمي": « كثير من عاداتهم وتقاليدهم وتنقلاتهم، وطريقة عيشهم، وامتهانهم الرقص والغناء و الوشم، وقراءة الطالع والسرقة والذهب الذي يكسون أسنانهم به كنا نراهم لصوصا وقوما فاسقين، كانت العجوز منهم تقوم بوشم نساء البلدة كلما مرت بها...

سمعوا ضرب على الطبلة وعزوفا على الرباب...كانت راقصة منهم في ثوب طويل تلف رأسها بوشاح أسود مزين بوريقات ذهبية، تهز جسدها الممتلئ وتطقطق بأصابعها، .. تقدم رجل وسحب وشاحها ليتناثر شعرها الأجعد الغزير وهي تواصل الرقص وتحرك شعرها على نحو دائري ... تقدم أحد الغجر وطلب من الرجل ..دفع دية كشف شعر المرأة ..كرد الاعتبار بتجاوزه على تقاليدهم.

أين سليمة العرافة؟

... خرجت سليمة .. وهي تربط رأسها بمنديل أحمر فوق فوطتها السوداء، وتضع خزامة ذهبية في أنفها، رحبت بهم فالتمعت الأسنان الذهبية تحت أشعة الشمس في فمها الواسع.» (الرواية ص 126)

ولعل هذا المقطع الطويل يلخص الكثير من عادات الغجر ويكشف لنا عن شخصيتهم.

خامسا: الهويات المتطرفة دينية – فكرية / الهويات القاتلة:

لا تفوت الروائية إبراز الهويات الدينية المتطرفة بتفكيرها الساذج غير المنطقي، وبما ينذر بحوادث أكثر تطرفا وعنفا، فلطفية ترى أن الهويات الدينية بدأت تفرض خطاباتها المتزمتة على الآخرين، وكأن هذه الديكتاتورية الجديدة الدينية قد حلت محل الديكتاتورية السياسية القديمة، مما ضيع الحوار بين الناس وسماع رأي الآخر، بل انتشرت الفتاوى الدينية التي تقوم بتحريم ما هو لائق وحضاري « بدأ انهيار اللغة تهاوت أصداء الكلام مرتطمة بالجدران حين حرم حراس الفضائل الزائفة من فوق المنابر تداول الشعر و الروايات

والقصص، ووزعوا ملايين الكراريس المجانية التي تضم الأدعية و الابتهالات وأحكام التطهر، وطرق النكاح الشرعية، ونكاح الصغيرات وزواج المتعة، وتزامن هذا مع تفجير المكتبات وحرق مخازن الكتب...فقد الناس اللغة اليومية التي كانوا يتحايلون بها على حراس الحاكم، وحلت لديهم كلمات غريبة يتداولونها دون أن يعوا مدلولاتها الفقهية المطلمسة، كلمات هطلت من الفضائيات التي يهيمن عليها حراس الفضائل الزائفة.» (الرواية ص 265)

ويبدو ان لطفية ترى في الهويات الدينية التي ظهرت بعد الاحتلال الأمريكي لبغداد خطابا مؤدلجا له وسائله الخطيرة في التمرير الفضائيات.

أما إشارتها إلى إحراق مخازن الكتب واستبدالها بالطلاسم، فهي استعاضة بالجهل عن العلم، كما يشير النص إلى الهوية الشيعية بصورة واضحة حيث أن زواج المتعة مباح بالمذهب الشيعي.

ولهذا لا تجد الدليمي في سيدات زحل فرقا بين القتل بالرصاص وبين القتل بالفتاوى الدينية.

« أجساد البشر ينفضها الرصاص و الخاطفون والفتاوى.» (الرواية ص 28)

سادسا: محددات الهوية الثقافية في الرواية:

تعني كلمة محدد: « كل ما كان معينا، ومحكما ودقيقا، نقول المنهج المحدد، والمقادير المحددة، والمحدد أيضا هو الذي ذكرت جميع خصائصه ومميزاته، حتى صار واضحا وبينا ويرادفه المعرف.

أما المحددة، صيغة المؤنث لفاعل حدد ونعني في الخبر تشكيلة عادية من كميات لها قيمة محددة و محددات السوق عناصره.» (الرواية ص 29)

أما الثقافة « فتشكل وفق لجورج لارين واحدا من أهم محددات الهوية الشخصية» (صليبة، دون سنة، ص 355)، كما أنها « جملة من القيم ووسائل حياة تؤسس للجماعة و تميزها عن غيرها.» (جورج، دون سنة، ص 24)

فلكل أمة محددات ثقافية تراكمت عبر التاريخ لتشكل لها هوية، وتشمل كل من الدين، العادات والتقاليد، التاريخ والتراث، هذا الأمر الذي لم يكن مغيبا عن لطفية الدليمي في هذه الرواية، وسنكتفي هنا بالحديث عن عنصري التاريخ و اللغة; لأن الدين سبق وأن تحدثنا عنه سالفا.

1 . التاريخ:

من المعلوم أن الأمة تتكون عبر التاريخ من خلال الإرث الجماعي و التاريخي المشترك لأفرادها فهي هوية تاريخية.

إن التاريخ حسب ابن خلدون « خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش و التأنس والعصبيات و أصناف التغلبات للبشر على بعضهم وما ينشأ عن ذلك الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم في الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران.» (بورديوبار، دون سنة، ص 184)

وعليه كان التاريخ يعنى بالنظر في أخبار الدول، وما يجمع بينها من علاقات، فالتاريخ هو « سجل الأمم نتعرف من خلاله على أحوالها، ووقائعها، وأخلاقها، وتقاليدها وآثارها، وعلومها، وتطورها، وهو سجل وجودها، ماضيها، وأخبارها، ومفاخرها، وذكرياتها، فليس هناك أمة بلا تاريخ.» (ابن خلدون، دون سنة، ص 35)

وبالتالي فأمة بلا تاريخ هي أمة بلا ذاكرة، هذه الذاكرة التي حاولت الدليمي أن تبقيها حية خلال عملها الروائي إذ تقول: « الذاكرة تتلعثم بين تشكيلات حديثة يرسمها الألم في اللحم، وبين حزين معتق لمدينة الروح البعيدة اللغة آه تتأرجح بين إيقاعات مختلفة ومؤثرات فكرية و عرقية تستقر بالدم.» (هنتنجتون، دون سنة، ص 125)

فهي تحتفظ بأدق التفاصيل عن مدينتها بغداد الروح، بغداد الألم، بغداد الدم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عليها أن تصون تراث العائلة. كما أشارت إلى ذلك في روايتها الأخرى

"عشاق و فوتوغراف وأزمنة.« أنت الحفيذة الأخيرة التي ستجمع أخبار الأسرة و البلاد معا، تقومين بتحقيق المخطوطات فيها شخبطات كثيرة وسطور مطموسة.» (الدليمي، 2015، ص 18)

ولعل البحث عن التاريخ هو بحث عن الهوية، وتحتل الذاكرة من كل هذا مكان القلب من الجسم فهي الأسطوانة الحافظة لسلسلة من الأحداث والصور و التشكيلات و الذكريات، هي إرث الأجداد، وأمانة الأحفاد، وفي كلام الروائية نكتشف دعوة إلى تنقيح التاريخ البغدادي الذي أصابه الزيف واعتباره اللبس.

أما والدتها فرأت بأن المطبخ ثقافة وتاريخ شعب لهذا قالت لابنتها:« المطبخ ثقافة شعب لابد أن أنقل إليك ما تعلمت من أمي وجدتي لتنقليه إلى الأولاد، الكتب لا تكتبها، الكتب لا تكفي، ولا في القصص ولا في الأغاني» (الرواية ص 90)

ومن هذا المنظور كانت الكتابة وسيلة لحفظ التاريخ من التلاشي« حياة لا تنسي اكتبينا قبل أن نموت و تطوى حكايتنا احفظينا في كراستك كما حفظت كراستك عمك الشيخ قيدار» (الرواية ص 245)

وقد برز في الرواية اهتمام حياة البابلي بتاريخ الأسرة « كم مرة سألت أبي عدنان رشيد البابلي لماذا يسموننا بيت البابلي؟ وكم من مرة ضحك من فضولي» (الرواية ص 37)

2 . اللغة:

تمثل اللغة الدعامة الأساسية للثقافة; بل هي الوعاء الحاضن لها بمختلف أشكالها وتعبيراتها، كما أنها « معلما أساسيا من معالم الانتماء لمتحدث لغوي اجتماعي، وهي بلا شك تسهم في تحديد أفق الهوية الواحدة وإنضاج ملامحها سواء أكانت هذه الهوية فردية أم جماعية أم إثنية أم وطنية، فاللغة هي التي تشكل ذواتنا، وهي التي تصف الآخر في ذهننا، وهي الوعاء الذي يضم منجزات الأمة وإرثها الحضاري (...) إن لكل أمة لسانها الخاص بها، والذي يمثل رمز وحدتها وهويتها ويعكس ثقافتها ودينها ومعتقداتها» (برهومة، دون سنة، ص ص 155-156)

ولو ولينا وجوهنا شطر الرواية لوجدنا لطفية قد تطرقت لمسألة اللغة باعتبارها جزء من الهوية الثقافية وتجلى ذلك في قولها: « و ابتعد عنا مع الرحالة الانجليز وصعد إلى الطابق الثاني كان يرطنا بلسان الانجليز» (الرواية ص 190)

ولم تغفل الروائية أيضا الظاهرة الغريبة التي شهدها المجتمع العراقي بمختلف أطيافه; أين دخلت على لغتهم أشياء جديدة مستوحاة من الفضائيات: « فقد الناس اللغة اليومية التي كانوا يتخاطبون بها على تأويلات حراس الحكام وحلت لديهم كلمات غريبة يتداولونها دون أن يعو مدلولاتها الفقهية المطلسمة كلما تهطلت من الفضائيات التي يهيمن عليها حراس الفضائيات الزائفة» (الرواية ص 28)

وعليه تجدر الإشارة هنا إلى تأثير وسائل الإعلام الأجنبية ودورها السلبي في فساد الذوق العام، وتجريد الهوية من أحد مقوماتها وهو اللغة.

الخاتمة:

فيما يلي مجموع النتائج التي توصلت إليها في دراستي هذه والتي يمكن إجمال بعضها فيما يلي:

- ✓ إن العراق يضم تنوعا في مكوناته العرقية والدينية الأمر الذي جعل منه لوحة فسيفسائية جميلة كانت مصدر غني له في الماضي، لكن الوضع تغير مع ظهور التناحرات التي أدكتها نار الفتن وغدتها السياسة.
- ✓ لعب الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003 دورا بارزا في تفجير الصراعات المذهبية والطائفية، فظهر ما يسمى بالعنف الطائفي.
- ✓ جاءت رواية لطيفة الدليمي معبرة عن رفضها للاحتلال، كما حثت على ضرورة الالتفاف حول الهوية الوطنية ودعت إلى نبد الخلافات.
- ✓ عالجت الرواية قضية التعدد الديني والطائفي والثقافي في العراق,

-المراجع:

1. عفيفي البوني، وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث، منشورات العالم العربي، باريس، ص 15.
2. ينظر سلوم سعد، الوحدة في التنوع، التعددية وتعزيز المواطنة الحاضنة للتنوع الثقافي في العراق، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد، ص 21، و ص 25.
3. دافيس ايربك، مذكرات دولة: السياسة والتاريخ والهوية الجماعية في العراق، تر حاتم عبد الهادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 01، ص 39 . 40.
4. شكري عزيز الماضي، انعكتسات هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسة والنشر بيروت، لبنان، 1972، ص 21.
5. شكري عزيز الماضي، الرواية والانتفاضة نحو أفق أدبي ونقدي جديد، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، 2005، ص 09.
6. جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، تر نايف بلوز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1965، ص 105.
7. لطفية الدليمي، سيدات زحل رواية سيرة ناس ومدينة، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط 03، 2015، ص 07.
8. الرواية، ص 16.
9. فيليب لابورث، تولو، وجان فارنييه، إثنولوجيا وأنثرولوجيا، تر مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1423 / 2014 ص 173.
10. الرواية، مصدر سابق، ص 14.
11. الرواية ص 8 و 9.
12. الرواية ص 17.
13. جويل كاندو، الذاكرة والهوية، تر وجيه أسعد، د ط، منشورات الهيئة العربية السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2009 ص 23، 84.
14. المرجع نفسه ص 86.

15. حميد الحميداني، بنية النص السردي، ص 60.
16. الرواية، مصدر سابق، ص 18.
17. الرواية، ص 31.
18. الرواية ص 32.
19. الرواية ص 72.
20. إدوارد سعيد، خارج المكان، ص 28.
21. غليون برهان، نقد السياسة: الدولة والدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، ط 04، ص 146 – 147.
22. ينظر البوني عفيف، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مجموعة كتاب، مرجع سابق ص 29.
23. عبد المنعم شيحة، المواطنة الطائفية، الدراسات الدينية سلسلة ملفات بحثية، 27 يونيو 2016 ص 17.
24. الرواية ص 174.
25. الرواية ص 13.
26. الرواية ص 286.
27. الرواية ص 288.
28. الرواية ص 284.
29. عبد المنعم شيحة، المواطنة الطائفية، مرجع سابق، ص 17.
30. المرجع نفسه ص نفسها.
31. الرواية ص 285.
32. عزيز سباهي، أصول الصابئة المندائية ومعتقداتهم الدينية، دار المدى، سوريا، د ط ، د ت ، ص 20.
33. الرواية ص 209.
34. الرواية ص 211.
35. الرواية ص 240.
36. الرواية ص 139.

37. الرواية ص 136.
38. الرواية ص 126.
39. الرواية ص 265.
40. الرواية ص 28.
41. الرواية ص 29.
42. ينظر جميل صليبة، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، الجزء الثاني باب الحاء، ص 355، وينظر معجم المعاني على الموقع الالكتروني: www.almaany.com/ar/dict/Ar%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A%
43. ينظر لارين جورج الايدولوجيا والهوية الثقافية . الحداثة وحضور العالم الثالث، تر فريال حسن خليفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 01 ص 24.
44. ينظر بورديوبيار، الهيمنة الذكورية، تر سلمان قعفاني، مراجعة ماهر تريمش، المنظمة العربية للنشر والتوزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 01، ص 184.
45. ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، الجزء من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد شارع محمد علي، مصر، ص 35.
46. هنتنجتون صامويل، من نحن: التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، تر حسام الدين خيضور، دار الرأي للنشر، دمشق، ط 01، ص 125.
47. لطفية الدليمي، عشاق وفوتوغراف وأزمنة،... ص 18.
48. الرواية ص 90.
49. الرواية ص 245.
50. الرواية ص 37.
51. ينظر برهومة عيسى، آفاق اللسانيات . دراسات . مراجعات . شهادات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، ص 155، 156.
52. الرواية ص 190.

53. –الرواية ص 28.